الحضارة العربية بوصفها حضارة عالمية

الدكتور محيي الدين صابر

١ - هو امتياز أعتز به، أن أقف بينكم في مفتتح ندوة هامبورغ، المنعقدة في اطار الحوار العربي الاوربي؛ وأن أخاطب هذه الصفوة من المفكرين البارزين في مختلف مجالات المعرفة؛ من العرب والاوربيين، الذين سوف يتناولون بالدراسة المتعمقة الموضوعات المختلفة في العلاقة بين الحضارتين الانسانيتين الكبيرتين اللتين أثرتا وتؤثران على مصير البشرية؛ وصنعتا وتصنعان المكتسبات الانسانية، والعلمية والتقنية، التي نقلت الانسان نقلة نوعية، في علاقته مع الطبيعة من ناحية، وفي علاقته بالآخرين من بني جنسه، من ناحية أخرى.

وان كلمتي التي أقوم بها في هذا المقام، سوف تقتصر على مدخل عام، للفكرة التي تعالجها الندوة التي نعلق عليها الأمل المشروع في إيجاد الصيغة الموضوعية والعلمية، لتقنين التعاون بين الحضارتين، بوضع الأسس الفكرية، وتصور الآليات التنظيمية لهذا التعاون، بما يغين على فهم عادل، وتقدير متبادل، وموقف إيجابي، يتحقق بها جميعا، تبادل المصالح المشتركة بينها بطريقة سوية، ومواجهة القضايا العالمية الكبرى، كقضية السلام والحريات والتنمية، برؤية ايجابية لخير الجانبين، ولخير الانسانية معا.

وان في الكلمات التي ألقاها اليوم قادة المجموعتين العربية والاوروبية في افتتاح الندوة دليلا على الأهمية القصوى لهذه الندوة، التي أعدت اعدادا وثيقاً، ولنتائجها التي تقود الى تصورات وقرارات واجراءات عملية في مسيرة التعاون الاوربي العربي في كل المجالات.

٢ - أيها السادة: ان للحضارة العربية، لقد علمتم، أبعاداً ضاربة في تاريخ البشرية؛ ولقد تمت في اطارها، انجازات خلاقة، وتحققت اكتشافات حضارية، قامت على القدرة المبدعة للانسان العربي، سواء في مجال التعامل مع الطبيعة استئناساً لها، أو في مجال التعامل مع المجتمع توسيعا لمداركه الاجتماعية، في مجالات الفكر والفنون، والصناعة والتجارة والقانون، والأدب، والدين.

فالعرب الذين نبتوا في الجزيرة العربية، خرجوا منها في هجرات واسعة متجددة الى ما حولها من المواطن البشرية، فكانت حضارات بابل وآشور وآرام، وكنعان، وفينيقيا، اخترعوا الزراعة، فاستنبتوا الأرض، وأنسوا الحيوان، واستخرجوا المعادن وصنّعوها؛ وشادوا المدن والمعابد واخترعوا الابجدية فكتبوا، وبرعوا في الفنون التشكيلية، فأنتجوا الروائع فيها نحتاً وتصويراً؛ وسنّوا القوانين؛ وابتدعوا التنظيم الاداري والتجاري، وأسسوا النظم السياسية، واستخدموا السفن، فعلوا كل ذلك؛ بمبادراتهم وبتفاعلهم مع الشعوب حولهم، فرسموا بهذا كله خطاً جديداً للحضارة الانسانية تناقلتها عنهم شعوب في الشرق والغرب.

واذا انتقلنا، الى ما نطلق عليهم اليوم، العرب، فإنهم في وقت مبكر، أقاموا الدول القوية المتقدمة في اليمن، كالدولة المعينية، والدولة السبئية؛ وفي الشمال كانت دولة «الانباط» في البتراء ودولة «تدمر» ودولة «المناذرة» في «الحيرة» بالعراق.

ولقد كانت مدينة مكة قبيل الاسلام مركزاً تجارياً، ودينياً وسياسياً يستقطب كل القبائل في الجزيرة العربية؛ وتُقرَّر فيها السياسات المالية؛ وتنطلق منها الحركة الفكرية والأدبية. وكانت لهذه الدول العربية؛ صلات واشجة، وعلاقات دائمة، مع الدول الكبرى المعاصرة لها في آسيا وافريقيا وأوربا، مع الفرس والبيزنطيين والاثيوبيين والمصريين، واليونان والرومان، في فترات مختلفة، وكانت العلاقات السياسية، والتجارية دائمة، مستمرة تعتورها فترات من الصراع؛ ويسودها في معظم الحالات، جو التفاهم والتحالف. وهذا كله، تاريخ مبسوط ومقروء، ومعالم قائمة وشاهدة، وآثار مدفونة تحت الأرض، ومحجوبة، تكتشف يوماً بعد يوم... وهكذا دخل المجتمع العربي؛ قبل الاسلام في علاقات بشرية وحضارية مع الأمم والشعوب المعاصرة؛ وتعرف على الديانات السماوية، واعتنقها فريق منه، وفي العرب كان الحنفاء الموحدون المتبعون ملة جدهم ابراهيم عليه السلام، وبرزت الشخصية الثقافية العربية قبيل الاسلام، في لغة موحدة مكتوبة ومتقدمة، مع اختلاف في اللهجات يسير، وكان أبرزها وأفصحها، لهجة قريش المكية، التي كانت، الى حدّ كبير، لغةَ الفكر والاداب وظهرت روائع الشعر العربي قبل الاسلام، وكذلك النثر الفني الذي يعبر عن هموم المجتمع واتجاهاته، والتي كان منبرها الاسواق الادبية، فيما يشبه أن نسميه الآن مهرجانات، وكانت تسمى أسواقاً، لأنها كانت تتم في مواسم عربية جماعية، في الحج، حيث تتم مراسيم دينية؛ وعمليات اقتصادية، وتسويات سياسية الى جانب النشاط الفكري والفني.

وحين نزل القرآن بهذه اللغة، وفي لهجة قرشية، تقرر لها البقاء، وضمن لها الخلود، فقد أصبحت وعاء العقيدة الاسلامية والفكر الاسلامي، لغة العبادة، ولغة العلوم الاسلامية واتسع مجالها، في خارج الوطن العربي، الى كل مكان، وصل إليه الإسلام على امتداد العالم.

٣ - وهنا ينبغي أنَ نشير في قول قصير، الى أن الموقع الجغرافي للأمة العربية، من ناحية؛ وأسلوب حياتها من ناحية أخرى، أهّلاها، منذ وقت قديم للتعامل، مع قارات العالم القديم؛ فكان العرب على صلة، بأوربا، وبافريقيا، وبشرق آسيا؛ وذلك عن طريق التجارة التي كانوا سادتها، والمحتكرين لها بين القارات نظراً لسيطرتهم على وسائل النقل التقليدية فهم أهل الإبل، أقدرِ الحيوانات على تحمل الاسفار، في الظروف التي تعجز عنها الحيوانات الأخرى، وقد كان من طبيعة نمط هذه الحياة؛ صفات اجتماعية للعربي، لا بد منها في قيادة القوافل وادارتها وتنظيمها، مثل معرفة الطرق في الصحراء؛ والبصر بحركة النجوم، والقدرة على حراسة تلك القوافل، ضد المغيرين عليها...

ومن هنا، نشط العرب في التجارة الخارجية بين القارات إما باعتبارهم ناقلين لها؛ أو أدلاء في القوافل؛ أو حماةً لها. ذلك الى جانب أن العرب الذين كانوا يعيشون على شواطىء البحار، البحر الاحمر، والمحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط، كانوا يقومون بالدور نفسه في المجال التجاري؛ وقد أثر التبادل التجاري، في العلاقات السياسية، تعاوناً وتحالفاً، أو صراعاً وتنافساً، كما أنه أدى الى التبادل اللغوي والفكري والديني، بين العرب وبين الشعوب المجاورة.... فالحوار العربي مع الشعوب الأخرى وتبادل الخبرات، ظاهرة تاريخية قديمة نابعة من ضرورات جغرافية واجتماعية، والوقائع التي تحفل بها كتب التاريخ، دليل قائم على ذلك.

٤ - كل ذلك، كان، قبل ظهور الاسلام واما بعد ظهوره فقد اتسع مدى هذا اللقاء العربي الخارجي؛ مما أدى الى مدّ نطاق التعاون العربي، من الاندلس غربا، الى حدود الصين شرقا، ومن جبال طوروس شمالا، إلى بحر العرب وأواسط إفريقيا جنوباً، فنشأ بذلك مجتمع عالمي جديد؛ يعيش في نظام ديني وفكري واجتماعي وسياسي واحد. على أن هذه الوحدة احتفظت بالتنوع الحضاري للمجتمعات المكونة لها، من حيث خصائصها الإجتماعية، والفنية والفكرية، في حدود العقيدة الاسلامية، التي لم تكره أحداً، على الانضمام إليها، فكان أهل الديانات الأخرى من المسالمين والمتعاهدين؛ يجدون من الحماية والرعاية ما يجده المسلمون الملتزمون؛ في ذلك المجتمع الكبير...

وبهذا تكوّنت للعرب، مرة أخرى، في تاريخهم الحضاري، صورة قائمة على الحوار، وعلى التعاون مع شعوب العالم..

ولعل ما كتبه الاستاذ جورج سارتون، وهو يؤرخ للعلوم، في كتابه المرجع، يدل على بعض ما نقول، فهو يسمي كل عصر من العصور التي اختارها، باسم المبدعين فيه، فيرى مثلا، أن الفترة من ٤٥٠ الى ٤٠٠ قبل الميلاد، هي عصر أفلاطون، ثم يليه عصر ارسطو، فإقليدس، فأرخميدس، أما الحقبة من ٦٠٠ الى ٧٠٠ ميلادية فهي عصر تشانج، وتشنج الصينيين؛ ويرى أن المدة الواقعة بين عام ٧٥٠ الى ١١٠٠ ميلادية هي عصر علماء عرب، تعاقبوا في سلسلة موصولة منهم جابر بن حيان والخوارزمي والرازي والمسعودي، وأبو الوفاء والبيروني وابن سينا وابن الهيثم، وبعد هذه الفترة البالغة ٣٥٠ عاماً، ينص على وجود أسماء من الاوربيين بعد عام ١١٠٠ يتقاسم معهم العرب القيادة العلمية في مدى ٢٥٠ عاماً أخرى، ونجد في هذه الفترة من الاسماء العربية ابن رشد والطوسي وابن النفيس، الى جانب جيرارد كريمونا ورودجرز بيكون. ولم تقتصر الصلة على العلوم وحدها، بل شملت مجالات الفكر والادب كلها. تأثر شعر التروبادور والبروفينسيين بابن قزمان، كما تأثر بوكاشيوتشوس وقصاصون ألمان كثيرون غيره بالعرب، وكان لقصص كليلة ودمنة وقصة السندباد وقصة الف ليلة وليلة سحرها على مخيلة الادباء الاسبان أمثال بدرو الفونسو. واستلهم دانييل ديفو Daniel Defoe في قصته روبنسون كروزه Robinson Grusoe قصة حيّ بن يقظان لابن الطفيل، أما الكوميديا الالهية للشاعر الكبير دانته التي يروي فيها رحلة الى السماء والجحيم فإن فيها أثراً من قصة الاسراء والمعراج كما أثبت بلاثيوس أو أثراً من رسالة الغفران للمعري أو من المتصوف الشهير ابن عربي كما قال آخرون، وماذا نقول عن دور ابن ماجد في الكشوفات الجغرافية بالتعاون مع أبناء الغرب، ودور الشريف الادريسي الذي استأثر باعجاب المؤرخين العرب والاوربيين والذي نحت على لوح من الفضة خريطة العالم لملك صقلية النورماندي.

هذا وليس من يذكر مفكر المسيحية الكبير توما الاكويني الا ويقرنه بالفيلسوف العربي المسلم ابن رشد، ذلك الى جانب الانتاج العربي في مجالات التربية والاجتماع، مثل القابسي وابن خلدون؛ وهناك من يربط بين نظرية الجشتالت، وبين ظهور ترجمة كتاب الزرنوجي المتوفى ٥٩١ هـ في التربية الى اللغة الالمانية، ولعلنا نجد في كتاب «تاريخ الادب العربي» لكارل بروكلمان صورة موضوعية عن ثقافة العرب التي لم تنطو على نفسها قط.

هذا غيض عن فيض وهي اشارات ذكرناها لتدل الى جانب العدد الوافر من الالفاظ والمصطلحات العلمية العربية التي انبثت في اللغات الاوربية حاملة دفق ثقافة غنية على أن التواصل الثقافي بين العرب والاوربيين ما انقطع في يوم من الايام.

وبطبيعة الحال، ليس من أهداف هذه الكلمة الافتتاحية، أن نأتي على ذكر أسماء العلماء العرب ولا على اسهاماتهم؛ ولكن ينبغي أن يشار هنا؛ الى أن كثيراً من المخطوطات العربية النفيسة، تعرضت لكوارث ضخمة؛ إما باحراقها أو بتدميرها أو القائها في النهر، كما حدث في بغداد وعلى أيدي التتار، ثم ان كثيراً من المخطوطات التي سلمت، لم يتيسر بعد جمعها، والتي جمعت منها، لم يتيسر طبعها وتحقيقها بعد لضخامة عددها؛ ولم يطبع منها الا جزء يسير.

٥ - لقد ظلت الجامعات في الاندلس، وفي صقلية مراكز التقاء بين العلماء العرب والعلماء الاروبيين وظلت الكتب العلمية، وبخاصة كتب الطب العربي تدرس في الجامعات الاوربية حتى القرن الثامن عشر. وفي هذا الصدد، يقول العالم الباكستاني الدكتور عبد السلام الحائز على جائزة نوبل: «ان جامعتي طليطلة وسالرنو، هما المصدر الذي خرجت منه العلوم، الى الوجود في الغرب، فقد أضيء فيهما مشعل من مشاعل العلم، كان متقداً منذ زمن في ديار الاسلام».

ومن الوقائع المقررة ان جيرارد الكريموني، مضى الى طليطلة

يطلب المجسطي لبطليموس هناك؛ ولكنه حين نزل بها، أخذ بالحركة العلمية والفكرية في جامعة طليطلة؛ وظل بها يدرس، ويترجم، وامتد مقامه فيها عشرين عاماً، نقل في أثنائها أكثر من ثمانين مخطوطاً في مختلف العلوم، وعاد بها الى موطنه؛ وغير جيرارد كثيرون من الاوربيين فعلوا مثل ذلك.

ان هذا كله، يشير الى عمق الصلة العلمية والفكرية وتبادل المعرفة، بين الثقافة العربية والثقافة الاوربية، وهو أمر طبيعي، فالعلم، بطبيعته ووظيفته، عطاء الانسان للحياة وقيمته، وفي نشره، وتبادله، وفي التقاليد العربية، الاسلامية، مثل قديم يقول: «كل شيء ينقص بالانفاق منه، الا العلم فإنه يزيد بالانفاق» وقد ظل العرب والمسلمون يعملون بهذه الفكرة في ممارسة **المعرفة الانسانية**.

٦ - العرب والاوربيون، تعارفوا منذ زمن قديم في التاريخ؛ بحكم الجوار وبحكم المصالح المشتركة، وتبادلوا الأمكنة، فذهب الاوربيون أكثر من مرة غازين في أجزاء من البلاد العربية، وكذلك فعل العرب، فانتقلوا الى أوربا، كما أنهم تعاملوا، وهم، في بلادهم، تعاون الانداد والنظراء في المجالات **الاقتصادية والفكرية**.

وتلك الصلات بين الجانبين، لم تكن كلها تعاوناً، ولم تكن كلها صراعا، وهذه هي جدلية العلاقات بين الحضارات والشعوب؛ وهو أمر ربما كان له في تاريخه، وفي زمنه، مبرراته السياسية والمذهبية والاقتصادية. ولكن الذي يهم في هذا المقام هو ذلك التعارف القديم، الذي ترك لنا خبرة عظيمة الشأن، ونحن ننطلق الى المستقبل؛ لنتفادى الاخطاء؛ ولنوسع من فرص التعاون.

٧ - مرت المنطقة العربية الاسلامية، في ظروف تاريخية قاسية لأسباب مرصودة في المراجع التاريخية؛ أثرت تأثيراً سلبياً واضحاً، على مواصلة الانتاج الفكري وتطوير العلوم، وتنميتها، في الوقت الذي بدأ فيه الغرب نهضته وبدأ يشق طريقه الى التقدم الاجتماعي والعلمي. ومنذ عصر الكشوفات الجغرافية؛ وعهد التوسع التجاري؛ ثم فترات المد الاستعماري، بدأت العلاقات بين الغرب والمنطقة العربية والاسلامية، متخذة طابعاً جديداً، ذلك أن الاستعمار الاوروبي، عن طريق السيطرة الحربية، والسياسية والاقتصادية؛ فرض على المنطقة، نمطاً جديداً من الحياة؛ وأنشأ لها مؤسسات؛ ونشر لغاته، وأحدث تغييرات في التنظيم الاداري والمالي والاقتصادي والاجتماعي والتربوي مما قطع، أو كاد؛ نمط الحياة التقليدية؛ ولم يكد يترك لها خياراً في الحركة، لا في القدرة على استئناف حياتها القديمة التي لم تعد قادرة على مواجهة الغايات والوسائل الاجتماعية الجديدة، ولا على المواءمة بينها وبين هذا الجديد، لأن هذه المواءمة تستدعي استيعابا لهذا الجديد، الذي كان يقدم في الحدود الضيقة التي تخدم أهداف المستعمر، وتمكنه من التحكم الاداري والحربي والسياسي، ومن الاستغلال الاقتصادي لتلك المجتمعات، وأكثر من هذا، فقد كان من أهداف المستعمر القضاء على كل رموز القيم القديمة التي يمكن أن تتحول الى قواعد مقاومة له؛ وبخاصة الثقافة العربية، بميراثها الضخم، والتي كان الهدف الأول للاستعمار هو محاربتها.

هذا ولقد أخذت المنطقة، كما أخذت المناطق الاخرى التي اجتاحها الاستعمار، بالمعجزة الاوربية؛ واعتبروا، على عادة المغلوبين في كل زمان؛ أن قوة الغالبين، انما تكمن في قدراتهم العلمية والتكنولوجية، وفي تفوقهم الاجتماعي، وان الحل الوحيد، هو التصدي لهم بسلاحهم؛ وبدأوا يعتنقون النمط الاوربي، وصولا الى طريق التقدم.

وهنا ينبغي أن نشير بوضوح كامل، ان هذا اللقاء الجديد بين الغرب، وبين العالم النامي، وفيه بطبيعة الحال، المنطقة العربية، كان أخطر لقاء بين حضارتين على مدى التاريخ، من حيث سعة مجاله التي أحاطت بالكرة الارضية من ناحية، ومن حيث آثاره البنيوية على الحضارة الانسانية، ذلك ان حضارة الغرب حضارة احلالية تهدف الى نسخ الانماط الحضارية القائمة، وقولبتها في الحضارة الجديدة قيماً وأهدافاً وأساليب.

ومع اننا لسنا هنا بصدد التقويم، ولكن بسبيل العرض، فإننا نقرر أنه مع كل الإيجابيات التي تضمنها هذا اللقاء المفروض على الشعوب، فإن سلبيات هذا اللقاء، هي التي أدت الى هذه الصورة القائمة الآن في العالم؛ الى حد كبير، فيما يتصل بالمشكلات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية. ولكن هل كان يمكن تفادي ذلك؟ وأكثر من ذلك هل يمكن مستقبلا، تفادي النتائج السلبية لهذا الالتقاء، دون أن يكون ذلك على حساب الحضارات الاخرى؟ وهل هي عملية ممكنة في ظل معطيات الحضارة المعاصرة، وطبيعتها ووظائفها.

٨ - للإجابة عن بعض هذه الاسئلة ينبغي أن ننظر في موضوعية الى طبيعة هذه الحضارة الصناعية والتكنولوجية؛ فمن المقرر أن هذه الحضارة، هي بطبيعتها حضارة كونية، ترمي الى تنميط قيم الانسان، في الحياة الدنيا، وتنميط أهدافه واتجاهاته ووسائله، ذلك أنها قائمة على معطيات العلوم الطبيعية والحيوية والرياضية، وهي لهذا وبصورة أو بأخرى، قابلة للتطبيق والممارسة في كل مكان وزمان، انها بعبارة أخرى، حضارة مطلقة، في مواجهة الصفة التاريخية للحضارات التي اتسمت بأنها حضارات نسبية؛ وهذه الحضارة تستهدف اشباع حاجات الانسان الاساسية في الحياة، بصورة أفضل وأكمل، دون أن تضع حدوداً لوسائلها المتجددة؛ فصارت بالضرورة حضارة سلعية بمعنى أن كل جهد فيها يستهدف معادلا مالياً؛ ثم انها اصطنعت لنفسها وسائل الانتشار الذاتي، في الاجهزة الاعلامية العملاقة؛ ووسائل الضبط والقهر، عن طريق التنظيمات العالمية، النظم المالية والمصرفية، وفي النظام الاقتصادي عن طريق الشركات متعددة الجنسيات، وهكذا حصنت نفسها؛ عالمياً، بوسائل الاقناع والسيطرة والاستيعاب الفكري، والقانوني، والاقتصادي، والسياسي.

٩ - وهذه الحضارة، ذات البعد الواحد وقعت في الوقت نفسه أسيرة قدرتها نفسها، فقد كانت نتيجة لتفوق الانسان على الطبيعة، واكتشافه لبعض أسرارها، ذلك أن الطبيعة كانت تستبعد الانسان؛ ويخيفه المكان بمخاطره متمثلة في تكوينه المورفولوجي، بجباله وبحاره وانهاره وصحراواته وغاباته ويخيفه الزمان في تقلبه، ودوراته، بالظلام، وبالبرد، وبالحر، الخ.. ولكن الانسان طور علاقاته مع الطبيعة، عن طريق الخبرة والملاحظة والفكر، فكلما تقدم به الزمان في الحياة، تراجعت سيطرة المكان عليه، وهو الآن في ظل هذه

الحضارة أصبح يخيف الطبيعة نفسها بتهديدها بالفناء، ويخيف نفسه بالتعرض للفناء الجماعي. حين كان الانسان، في ظل الحضارات القديمة يتعامل مع جسد الطبيعة. كان أكثر عناء في جسمه، وأكثر أمنا في نفسه، ولكنه عندما بدأ يتعامل مع أسرار الطبيعة، أصبح أقل عناء في جهده، ولكنه فقد الأمن، وعاش في قلق لا مخرج له منه...

ان هذه الحضارة بطبيعتها؛ وبوسائلها، تبدو قدراً مكتوباً على البشرية، فهي لا تملك ان تتراجع، ولا أن تتوقف، لقد تحولت الحياة الى آلة ضخمة تتحرك باستمرار، دون ارادة أو هدف الا ارادة الحركة وهدف الحركة وحدها.

١٠ - وهنا، فإنه ينبغي أن نضيف، أن هذه الحضارة، التي تسمى حضارة أوربية أو غربية هي حصيلة جهد الانسان كل الانسان، وثمرة سعي الحضارات كل الحضارات. ولقد أسهم فيها العرب، اسهامات واسعة وأساسية ولأسباب غير واضحة، وقد تكون مقصودة أو غير مقصودة أهمل دور الحضارة العربية والاسلامية اهمالا غير علمي في معظم كتب تاريخ العلوم الطبيعية والحيوية والرياضية المعاصرة التي كتبها الاوربيون، كما أغفلت ريادتهم للبحوث التطبيقية والتجريبية ولأول مرة في تاريخ العلوم، ومع هذا ينبغي أن نذكر دور الفكر الاجتماعي الاوربي، في توجيه هذه القدرة العلمية والتكنولوجية الى هذا المسار ذي البعد الواحد، تحت تأثير الاتجاه العلماني، من ناحية، والاقتصاد الحرّ من ناحية أخرى، على أن السعي الى التفوق الحربي غير بعيد عن اعطاء هذه القدرة البشرية هذا الهدف اللامتناهي.

هذه هي قضية العصر، والعصور القادمة؛ وليس من همنا، هنا، تقويم ذلك، ولكننا، على أية حال خواطر، تعرض، في مجال الحوار العربي الاوربي؛ لأنها تمثل صلب المشكلة....

١١ - كان على العرب، ولم يكن لهم خيار، أن يسيروا في طريق الحضارة المعاصرة، على اختلاف ظروفهم، وفي حدود قدراتهم، وفي نطاق قيمهم التي هم عليها حريصون، وعليها قائمون، ومن هنا كانت أهمية هذا الحوار، الذي تقوم عليه، المؤسستان الاقليميتان في المنطقتين، الجامعة العربية، والمجموعة الاوربية ويستمد مشروعيته من روح العصر الذي نعيشه، والتي هي نفسها، تعبير من تعابير هذه الحضارة الكونية، التي تحاول استيعاب وهضم كل الحضارات، والتي تدرك الصعوبات القائمة، وتمسك الحضارات الاخرى بهويتها، وبحقها في الحياة؛ فليس قيام عصبة الأمم؛ ثم هيئة الأمم المتحدة، ومنظماتها؛ ثم المؤسسات الاقليمية؛ والمذهبية، أمراً هو من باب الصدفة؛ ولكنه بحث عن الحلول المناسبة لهذه الظاهرة الجديدة في بناء العالم المعاصر.

والحوار، أساساً، هو الالتقاء حول النقاط المشتركة، وتوسيعها، وتعميقها؛ والتقريب بين نقاط الخلاف، بحثاً عن المواءمة، وبعبارة أخرى الحيلولة دون أن تكون نقاط الخلاف عقبة في سبيل التفاهم المشترك؛ وهذا يقتضي أن يفضي الحوار الى تحديد الاهداف المشتركة ومؤسساتها ومجالاتها وبرامجها، وأجهزتها التنفيذية التي تقوم على أوجه النشاط، ومتابعتها وتقويمها، بحيث يكون هناك نظام دائم مستقر؛ وعلى الجامعات والمؤسسات الثقافية، ومراكز البحوث دور جوهري، في تحقيق أهداف هذا الحوار، وتطويره، وتوسيع مداه، في مجالات الدراسات والبحوث المشتركة، والمناهج التعليمية؛ وتقويم التاريخ الفكري؛ للمنطقتين؛ وفي مجالات التبادل الفني، والتذوق المشترك لأنواع الفنون المختلفة التي أنتجتها وتنتجها المنطقتان، وفي نشاط تعليم اللغات الاوربية واللغة العربية، واعطائها الفرصة المناسبة لأهميتها في المدارس والمعاهد الاوربية، كما تفعل البلاد العربية التي تنفق اموالا طائلة، لتعليم اللغات الاوربية في مدارسها، مما ساعد على فهم أفضل للحضارة الاوربية.

ولعل من أهم ميادين النشاط في هذا الاطار؛ عملية التعاون التكنولوجي؛ والتعاون في اجراء البحوث العلمية المتقدمة، والتي تعين على توطين التكنولوجيا، واستنباتها، وفي تدريب القوى البشرية وتبادل الزيارات في مختلف مجالات المعرفة؛ وعلى المستويات المهنية والنوعية: الساسة والعلماء والفنانون والمفكرون، والاساتذة، والشباب والنساء والعمال والاعلاميون.

١٢ - وهكذا يتحقق للحوار مقوماته: ليثمر في اغناء كل طرف من أطرافه، ذلك الحوار، لا يهدف الى تحقيق التماثل، ولا يتطلب تنازل جانب لجانب آخر، ولكنه في الاساس يتطلب فهما مشتركا وحقيقياً لطبيعة الموضوعات المطروحة وعلاقاتها في هذا العصر، الذي يتميز بانقسام العالم الى كتلتين، فهناك انقسام بين الامم المتقدمة تكونولوجياً واقتصاديا، وبين الامم المتخلفة في هذه المجالات؛ وهو الانقسام الذي يطلقون عليه، انقسام الشمال الغني، والجنوب الفقير، ثم لا يقل خطرا عن هذا، بين الامم المتقدمة نفسها وهو الانقسام المذهبي بين الشرق والغرب، فكل الجهات الاربع في اختلاف الشمال والجنوب، والشرق والغرب، ذلك، اذا استبعدنا الخلافات الجانبية في كلا المعسكرين، فالى أين اذن تتجه البشرية المعذبة؟

على ان هذا لا يعني، ان الدولة المتقدمة نفسها، في خير كثير، فهناك الانكماش والتضخم والبطالة؛ ولكن الشيء الذي تنبغي ملاحظته، هو أن مشكلات الاقتصاد المتقدم تشترك المجتمعات النامية في تحمل تبعاته، بينما تكاد المجتمعات النامية ان تواجه مشكلاتها الاقتصادية منفردة الى حد كبير، وبخاصة انعكاساتها على المستوى السياسي والاجتماعي؛ وتتعرض لهزات ومشكلات قاسية. صحيح ان الاقتصاد العالمي يتأثر بوضع الاقتصاد النامي، ويحاول مواجهة ذلك ولكنه يواجه هذه الامور باجراءات ترقيعية، لا تصل الى تصحيح البناء الاقتصادي...

١٣ - ولعلّهُ الى جانب العلاقات التكنولوجية والاقتصادية، وقضايا الطاقة العربية ومشكلاتها، وهي جزء من مشكلات عالمية، تنبغي الاشارة الى أن المنطقة العربية عانت في خلال قرنين من الزمان، أو ما يقرب، أخطاراً مختلفة تمثلت في صور الاستعمار المتعددة، وكانت قمة تلك الاخطار، هي محنة الاغتصاب الصهيوني لأرض فلسطين العربية، وتشريد شعبها. وقتله وقتل العرب، في كل قطر، تصل اليه يدها التي أطالها الغرب، لتحل مكانهم أقواماً من أجناس مختلفة، وحضارات متباينة، ولغات متنوعة، في ممارسة قبيحة ومرفوضة.

في هذا العصر، وفي كل العصور، للعنصرية التي يدعون انهم كانوا ضحاياها...

ان الوجود الصهيوني الغاصب، ليس كارثة سياسية، ولكنه أيضاً

كارثة اقتصادية لأنه استنزاف مخطط لقدرات العرب التنموية، وعقبة في سبيل البناء والتقدم، وإجبار للعرب ليكونوا في موقع الدفاع عن وجودهم الحضاري في وطنهم التاريخي، وان الحوار العربي الاوربي، ينبغي أن يتصدى لهذه القضية، ليس باعتبارها قضية سياسية وحسب، ولكنها لأنها في الاساس قضية فكرية، فالفكرة الصهيونية التي تسامح معها الآخرون؛ يجب أن تقوم تقويماً صحيحاً، في اطار أهدافها وممارستها العنصرية، لأنها فكرة تؤدي الى نشر البدائية في العلاقات الانسانية، وتؤدي الى زعزعة السلام وهي مدججة بالسلاح، ليس في الوطن العربي وحده، ولكن في العالم كله.

١٤ - فالحوار قائم على ادراك العلاقات الراهنة بين الحضارتين، ومن هنا فهو يستهدف فهماً أعمق للذات، وللآخرين؛ ان الصورة العربية ينبغي أن تكون معروفة، وعلى حقيقتها الموضوعية؛ بنظرة بريئة من التعصب، والاحكام المُسبقة، التي رسمتها الاطماع السياسية. كذلك فإن الصورة الاوربية ينبغي أن تكون معروفة، وعلى حقيقتها الموضوعية للعرب، فالصورة السلبية التي رسمتها الممارسات الاستعمارية وصور الاستغلال، والاستعلاء، وغير ذلك مما رسخ في النفوس، ينبغي أن تعدّل في الظروف الجديدة؛ وينبغي ألا يبقى من التاريخ، الذي لا يتكرر، الا العظة؛ وذلك حين يرسم طريق جديد، لسياسة تعاون مستقبلي...

١٥ - وهكذا، فإن التفاهم ينبغي أن تكون قاعدته الحوار الفكري، الذي يقوم عليه كل حوار ايجابي بناء؛ فالحوار الاقتصادي، والحوار السياسي، كيما يؤديا الى غاياتها المرجوة يتطلبان مرتكزا فكريا، ينمي جوانب الالتقاء، ويضيق نطاق الافتراق؛ وهنا ينبغي أن نشير الى قضية محاولة الاستلاب والاغتراب اللذين تعرضت لهما الثقافة العربية، كما تعرض لها غيرها من شعوب العالم الثالث، تحت سيطرة الاعلام الغربي، من ناحية؛ ومحاصرتها فكرياً وعلمياً من ناحية أخرى، وتدخل في هذا الباب ظاهرتان، احداهما محاولة تقديم هذه الثقافة بأنها متخلفة، وانها ثقافة أدبية وان اللغة العربية لغة لا تتسع للتعبير عن العلوم الحديثة؛ التي تقوم عليها الحضارة المعاصرة، أما الظاهرة الاخرى، فهي الاغراء المتنوع الذي يقدم للصفوة من العلماء والمثقفين العرب ليبقوا في الغرب أو ليعودوا إليه، مما نشأ معه ما يعرف عالمياً بهجرة الادمغة.

ولقد أشرت في فقرات متعددة في هذه الكلمة؛ الى أن اللقاء العربي الاوربي، قديم؛ باعتبار العرب والاوربيين، قوتين قديمتين وعريقتين في العالم؛ وأن الحوار الفكري بينهما، في أرض أوربا، نفسها، أسهم بفاعلية، في النهضة العلمية الاوربية.

كذلك، فإن أوربا، في العصر الحديث، مكنت العرب، مهما كانت ظروف ذلك، من التعرف على العلوم الحديثة وعن طريقها، حدث تغيير جوهري في البناء التعليمي الحديث، ذلك الى جانب الدور الكبير الذي قام عليه العلماء الاوربيون من المستشرقين الذين واصلوا ذلك التقليد العلمي في التعاون بين الثقافتين فقدموا الثقافة العربية الاسلامية الى الغرب في مختلف لغاته، كما أنهم أعانوا على وضع أسس البحث العلمي ومناهجه، فكان لذلك كله أثر كبير في استمرار ذلك التعاون الذي نريد توسيعه وتعميقه. وهذا كله مما يبعث على الأمل المشروع في الوصول الى نتائج ايجابية، في صورة تعاون مؤسسي دائم وطويل المدى، لتصحيح الاخطاء، وبناء المستقبل على أساس موضوعي. وفي الدراسات الرصينة التي سيقدمها المتحاورون العرب والاوربيون حول موضوعات الندوة، والمناقشات والتعليقات العلمية عليها ما يعين على بلوغ الهدف المشترك.

١٦ - وخلاصة هذا كله ان هذه الندوة، تستهدف التعرف على الاوضاع الثقافية بالمعنى الواسع، لدى الطرفين، أهدافاً ومؤسسات ونظماً، وممارسات، كما تسعى الى دراسة احتمالات التعاون المتبادل في مختلف تلك المجالات، مما يحقق التفاهم المسؤول لتطوير العلاقات العربية الاوربية، من ناحية، وبما يسهم في حل المشكلات العالمية من ناحية أخرى، فالمشكلات المعاصرة، ذات طبيعة عالمية، ومن هنا فإن في الالتقاء بين أوروبا والعرب، خطوة نحو التقاء أكبر، ذلك أن القضايا التي تعالجها هذه الندوة في اطار الحوار العربي الاوربي هي صلب معظم المشكلات الدولية في عالمنا المعاصر.

واذا كنا نتطلع من خلال هذا الحوار الى أن نصحح الصور والمفاهيم التي خلقتها ظروف تاريخية لدى كل طرف، عن الآخر، والى أن نرتاد آفاق التعاون السوي وحل المشكلات القائمة بينهما فنحدد الاهداف والمجالات والمؤسسات والوسائل، فإنه ينبغي أن نشير الى هدفين آخرين هامين هما:

أولا: إن كثيراً من مشكلات التقدم التكنولوجي الذي يشترك فيه الغرب، وأوربا في قلبها؛ هي مشكلات مشتركة بأقدار ونسب متفاوتة، فالغرب يعاني كثيراً من الآثار المترتبة على هذا التقدم، في بنائه الاجتماعي، وفي قيمه الانسانية، فالانسان يخترع آلة ولكنه لا يخترع السلوك الاجتماعي المصاحب، وانما تخترعه تلك الآلة المحايدة؛ التي لا تعتنق قيمة انسانية، أو سلوكاً اجتماعياً، ومن هنا فإن الغرب نفسه يتعرض في حياته الاجتماعية للقهر الاجتماعي الذي تفرضه التكنولوجيا، في ظاهرة ما يسمى بالهوة الحضارية (Cultural Lag) وآثار ذلك كله واضحة في سلوك الشباب وممارساته، وفي انتشار الانحرافات الاجتماعية المختلفة، وهنا مجال للبحث عن الوسائل الاجتماعية لمواجهة هذه الظاهرات في المجتمع الغربي، وفي التصدي لما ظهر من ذلك، ولما يمكن أن يظهر منه في المجتمع العربي نتيجة للتأثر بنمط الحياة الغربية.

ثانيا: ينبغي أن ينظر الى هذا الحوار، في اطار عالمي، بمعنى أنه الى جانب هدفه المباشر في تصحيح العلاقات وتخطيط آفاق التعاون، ومجالاته ومؤسساته، بين أوروبا والعرب، يستهدف كذلك، تصحيح العلاقات العالمية، وتحقيق أوجه التعاون، بما يخفف من التوترات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، بما يمكن أن يخلق من نموذج ايجابي..

ومن هذه الندوة التي تتم في اطار منظمتين اقليميتين تقومان بدور تاريخي، في العالم المعاصر، يمكن ان ينطلق عمل تاريخي جليل، فلنبدأ عملنا الكبير هذا، الذي هو أمل كبير أيضاً، بعقول متفتحة وارادة إيجابية لفتح صفحة جديدة في العلاقات العربية الاوربية.

محي الدين صابر

المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم